المحاور الرئيسية:

1- المحاضرة الأولى: مقدمة (العقل التاريخي نحو الفلسفة).

2- المحاضرة الثانية: التاريخ من المصطلح إلى المفهوم.

3- المحاضرة الثالثة: من التفسير التاريخي إلى فلسفة التاريخ والحضارة.

4- المحاضرة الرابعة: نظريات التعاقب الدوري للحضارة (ابن خلدون، توينبي).

5- المحاضرة الخامسة: فلسفة التاريخ عند هيجل (الديالكتيك الهيجلي، وأقنوم التقدم التاريخي).

6- المحاضرة السادسة: النظرية الماركسية المادية للتاريخ (ماركس، انجلز، داروين).

7- المحاضرة السابعة: الحس التاريخي والمدرسة التاريخانية.

8- المحاضرة الثامنة: في نظرية نهاية التاريخ والآفاق التاريخية .

9- خاتمة: تأملات في فلسفة التاريخ.

المحاضرة الأولى: مقدمة (العقل التاريخي نحو الفلسفة)

اقد احتاج الإنسان منذ الأزمنة القديمة إلى آليات فهم لواقعه وأحواله، انطلاقا من استحضار عديد من الأسئلة كانت تراوده بوصفه كائنا قادرا على التفكير، غير أنه ومنذ أكثر من 5000 سنة مضت أصبح الإنسان أكثر جدارة باستلهام فكرة "أن الإنسان يمكنه أن يتجاوز الزمن الحاضر باستعمال نظام للاتصال الإنساني بوساطة الرموز البصرية أو الإشارة"، هذا النظام الذي تطور في ما نسميه اليوم بالكتابة، بالإضافة إلى فنون معمارية كثيرا ما كانت وثيقة الارتباط بالزمن والأحداث، ومنذ العصور التاريخية الأولى تبلورت الأسئلة والاستفهامات لشرح السياق العام للحوادث البشرية من خلال بعض العموميات أو الكليات، فعلى سبيل المثال، يعتبر اليونانيون القدامى التاريخ – بنظرة كلية– الحوادث دورة تعيد نفسها دون نهاية، وهو ما أصَّلَه هيرقليطس في طرحه الفلسفي الخاص –الذي وُصِفَ لاحقا من طرف جيل دولوز بالمأساوي–؛ مفاده أن الحياة بريئة وعادلة بصورة جذرية، وأن الوجود ظاهرة جمالية لا ظاهرة أخلاقية أو دينية، ونفى هيرقليطس من خلال هذا الطرح ثنائية العوالم، ونفى الوجود بحد ذاته، إذ ليس هناك غير الصيرورة، العود، والتكرار[1]، هذه باكورة الفكر الإنساني في تصوره العام للتاريخ الإنساني.

بينما تعتبره النظرية النَّصرانيَّة التقليدية سلسلة من الحوادث لها بداية ونهاية، ووفقًا لهذا الاعتقاد يوجه الله الحوادث الإنسانية نحو الهدف النهائي للبشرية، وسيطرت هذه النظرية على مجمل المدونات التاريخية في العصور الوسطى، بينما كان تناول أحداث التاريخ عند المسلمين من تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان؛ لذا فإن حركة التاريخ في الإسلام لها طابع مميز عن حركة التاريخ العالمي الذي لا أثر فيه للوحي، غير أنهم كانوا أكثر حرصا على تحري الحقيقة والصواب في تسجيل الأحداث، وأيضا أولوا اهتماما خاصا بالتوقيت بالسنة والشهر واليوم أحيانًا وهو ما لم يحدث في أوروبا إلا في نهاية القرن السادس عشر الميلادي[2]، ولكنهم في هذا الإطار كانوا متأخرين نوعا ما في عملية التدوين وكتابة بعض الأحداث بما يفوق قرنا من الزمان، باعتبارهم كانوا أمة رواية وحفظ

---

(1) أنظر: جريدة الشرق الأوسط، هيرقليطس فيلسوف الصيرورة والنار، 1 مارس 2014.

(2) أحمد مهدي ومحمد الشويخات وآخرون، الموسوعة العربية العالمية، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 2004، أنظر مادة "علم التاريخ".

أكثر من كونهم أمة كتابة وتسجيل، غير انهم بقوا حبيسي الاعتقاد السائد بأن الأمر كله لله من قبل ومن بعد.

وافترض الباحثون في الأزمنة الحديثة، عددًا من النظريات، كما طَوّر الفلاسفة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين مفهوم التاريخ، باعتبارها عمليات حتمية للتطور، واعتقدوا أن حوادث هذا التطور سوف تؤدي إلى نظام اجتماعي منطقي شامل، يعتمد على الفهم العلمي للحوادث البشرية، لذا تجاوزت استفهاماتهم تلك الأسئلة التقليدية: ما التاريخ؟ وما موضوعاته؟ وما المؤرخ؟ وما صنعته في هذا المجال؟ إلى أسئلة أعمق وأدق وأكثر علمية، بما يتوافق مع المناخ الثقافي والفكري لتلك للحقب التاريخية، فتمحورت أسئلتهم في: كيف نفهم التاريخ؟ وما محركات ذلك الفهم؟ ولو أن هذه التساؤلات أيضا قديمة في عصرنا هذا، ولكنها تتجدد في كل عصر[3].

لعل العرب والمسلمين عامة هم أول من أدخل على الكتابة التاريخية اهتمامات جديدة، في إطار ارتباطها النوعي بالحدث وجوانبه: كالتعليل والبرهنة والتحقيق والتمحيص وتحري المصداقية، وهو ما أدى بهم إلى الاهتمام بالمؤرخ جنبا إلى جنب مع الحدث، فأصبح المؤرخ محورا إضافيا وبعدا جديدا لفهم الحدث التاريخي، أو بالأحرى لتحري مصداقية ذلك الحدث، فابتكر الرواد الأوائل لجمع الحديث منهجا دقيقا في تصنيف الأحاديث النبوية والأخبار التاريخية، فانبثق عن مادة التاريخ في ذلك الوقت علم الرواية، ومصطلح الحديث، وعلم الجرح والتعديل، وأيضا الإسطوغرافيا الدينية المبكرة، ككتاب **معرفة الثقات** للعجلي وكتاب **الثقات** لابن حبان، **وتاريخ أسماء الثقات** لابن شاهين و**الضعفاء الصغير** للبخاري و**الطبقات الكبرى** لابن سعد وغيرها كثير جدا، غير أنه ومنذ القرن الرابع الهجري؛ أولى الإخباريون العرب والمسلمون أهمية معتبرة –في محاولة بائسة لتجاوز المؤلف– إلى الكتابة عن الفنون والآداب والعلوم والصنائع بل حتى الكتابة في حد ذاتها، فجاءت المؤلفات الموسوعية تباعا منذ كتاب **الفهرست** لابن النديم، ولكن كثيرا ما نجد كتاب **الفهرست والأغاني وديوان الحماسة وصبح الأعشى... ومفاتيح العلوم والأحكام السلطانية... وكشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون**؛ تهتم بالمؤلف بل وتهتم بالحدث أحيانا أكثر من اهتمامها بالموضوع في حد ذاته.

---

[3] علي عبود المحمداوي وآخرون، فلسفة التاريخ جدل البداية والنهاية واعود الدائم، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، دار الروافد الثقافية– ناشرون، بيروت، 2012، ص11.

لعل هذا هو الأمر الذي انتبه له الإخباريون الأوائل كالطبري والمسعودي وآخرون... وميزوا أعمالهم ووصفوها بالموسوعية التي تقوم على الجمع والسرد بهدف حفظ الأخبار للأجيال القادمة وحمايتها من الضياع، تاركين للقارئ حق تقرير ما هو صحيح وما هو مبالغ فيه أو خاطئ، تاركين المجال له بالنظر والتحقيق، لإصدار الحكم الذي يطمئن إليه، وفي هذا الإطار يذكر المسعودي: «إِذْ أَنَّ كِتَابَنَا كِتَابَ خَبَرٍ لَا كِتَابَ بَحْثٍ وَنَظَرٍ...»[4] ، ولكن الفهم الحقيقي لهذه العبارة هو ليس ما تعنيه اليوم في أفكارنا، فالمسعودي كان يريد أن هذا الكتاب كتاب تاريخ ولا يُعْنَى بتفسير كل الظواهر وشرح كل المعتقدات الدينية والتأكد من معقوليتها، ولنقف قليلا ونقارن بين ما ورد في **مروج الذهب**... وبين ما ورد في كتاب **تاريخ الرسل والملوك** يظهر لنا الطبري أكثر وضوحا وصراحة في تبيان منهجه في النقل وجمع الأخبار وذلك في قوله: « وَلْيَعْلَمِ النَّاظِرُ فِي كِتَابِنَا هَذَا أَنَّ اعْتِمَادِي فِي كُلِّ مَا أَحْضَرْتُ ذِكْرَهُ فِيهِ مِمَّا شَرَطْتُ أَنِّي رَاسِمُهُ فِيهِ، إِنَّمَا هُوَ عَلَى مَا رَوَيْتُ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي أَنَا ذَاكِرُهَا فِيهِ... دُونَ مَا أُدْرِكَ بِحُجَجِ الْعُقُولِ، وَاسْتُنْبِطَ بِفِكْرِ النُّفُوسِ، إِلَّا الْيَسِيرَ الْقَلِيلَ مِنْهُ، إِذْ كَانَ الْعِلْمُ بِمَا كَانَ مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَنْبَاءِ الْحَادِثِينَ، غَيْرَ وَاصِلٍ إِلَى مَنْ لَمْ يُشَاهِدْهُمْ وَلَمْ يُدْرِكْ زَمَانَهُمْ، إِلَّا بِأَخْبَارِ الْمُخْبِرِينَ، وَنَقْلِ النَّاقِلِينَ، دَونَ الْإِسْتِخْرَاجِ بِالعُقُولِ، وَالْإِسْتِنْبَاطِ بِفِكْرِ النُّفُوسِ، فَمَا يَكُنْ فِي كِتَابِي هَذَا مِنْ خَبَرٍ ذَكَرْنَاهُ عَنْ بَعْضِ الْمَاضِينَ مِمَّا يَسْتَنْكِرُهُ قَارِئُهُ، أَوْ يَسْتَشْنِعُهُ سَامِعُهُ، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ لَهُ وَجْهًا فِي الصِّحَّةِ، وَلَا مَعْنَى فِي الْحَقِيقَةِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يُؤْتَ فِي ذَلِكَ مِنْ قِبَلِنَا، وَإِنَّمَا أُتِيَ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ نَاقِلِيهِ إِلَيْنَا، وَإِنَّا إِنَّمَا أَدَّيْنَا ذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا أُدِّيَ إِلَيْنَا»[5].

أما عز الدين ابن الأثير فقد شرح لنا ما قام به الطبري بأبسط من شرح الطبري ذاته، باعتباره أهم مصدر اعتمده في تأليفه لكتابه **الكامل في التاريخ**، وذلك في قوله: « وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ فِي أَكْثَرِ

[4] أبو الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2005،ج1، 62.

[5] محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك –وصلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي–، ط2، دار التراث، بيروت، ج1، ص ص 08، 09.

الْحَوَادِثِ رِوَايَاتٍ ذَوَاتَ عَدَدٍ، كُلُّ رِوَايَةٍ مِنْهَا مِثْلُ الَّتِي قَبْلَهَا أَوْ أَقَلُّ مِنْهَا، وَرُبَّمَا زَادَ الشَّيْءَ الْيَسِيرَ أَوْ نَقَصَهُ »[6].

غير أن هذا ما أوقع الكتابة التاريخية في أزمة لم ينتبه لها مؤرخو العصور الوسطى، ألا وهي السرد التاريخي البعيد كل البعد عن الهدف الأسمى، "فَالْأَمْرُ لَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّارِيخِ كَوَقَائِعَ، لِأَنَّ هَذِهِ الْوَقَائِعَ تَحْدُثُ بِاسْتِمْرَارٍ، وَبِدُونِ انْقِطَاعٍ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ مُتَعَلِّقٌ بِوُجُودِ أَوْ اِنْعِدَامِ الْوَعْيِ التَّارِيخِيِّ، وَهَذَا بِدَوْرِهِ مُرْتَبِطٌ بِذِهْنِيَّةِ الْعُمُومِ لَا بِإِنْتَاجِ الْمُؤَرِّخِينَ الْمُحْتَرِفِينَ" بهذا عبر عبد الله العروي عن هذه الأزمة[7]، غير أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد حسب العروي؛ فهناك مجتمعات تاريخية وأخرى غير تاريخية، ليس بالضرورة أن تكون هذه المجتمعات خارج التاريخ تماما، أو أنها لا تهتم به مطلقا، بل هي مجتمعات تعيش التاريخ بشكل عفوي، وتكتب فيه بشكل تلقائي، دون إشكال عام ودونما حس نقدي، لهذا فإنه قد يتوفر عدد كبير من المؤرخين يؤلفون كتبا كثيرة ولا يشاركون في رفع مستوى الوعي بتقلبات التاريخ، أو لنقل أنهم بدورهم فاقدون لذلك الوعي بالتاريخ[8].

أما عبد الرحمن بن خلدون؛ فيعتبر خاتمة العصر الوسيط، فقد لخص الكثير من مشكلات الكتابة التاريخية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالخبر في محاولة جادة هذه المرة لتجاوزها، إلى أفق الفهم التاريخي الأكثر اتساعا، بعيدا عن الانحسار في زاوية الحدث، وذلك بقوله: «اِعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ التَّارِيخِ أَنَّهُ خَبَرٌ عَنِ الاِجْتِمَاعِ الإِنْسَانِيِّ الَّذِي هُوَ عُمْرَانُ الْعَالَمِ...»[9]، هذه العبارة بما تحمله من إرث ثقافي ثقيل؛ قابلها بما يليها ليشخص الأزمة التي وقع فيها المؤرخون، إلا وهي تحريف الخبر أو تزييف الخبر، وذلك في قوله: « وَلَمَّا كَانَ الْكَذِبُ مُتَطَرِّقًا لِلْخَبَرِ بِطَبْعَتِهِ وَلَهُ أَسْبَابٌ تَقْتَضِيهِ...» [10]، ثم يفصل في تلك الأسباب بما هو مشهور عند الناس، غير أنه يشير إلى قضية خطيرة لخصها في الثقة في الناقلين، بل ودعا إلى تمحيص أخبار الناقلين على أنه جزء من تمحيص الخبر في حد

---

(6) عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997، ص07.

(7) عبد الله العروي، مفهوم التاريخ –الألفاظ والمذاهب. المفاهيم والأصول–، ط4، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005، ص24.

(8) عبد الله العروي، مرجع سابق، ص24.

(9) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ط2، دار الفكر، بيروت، 1992، ج1، ص46.

(10) المرجع نفسه، ج1، 46.

ذاته، ليختم بقوله: «... وَتَمْحِيصُ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى التَّعْدِيلِ وَالتَّجرِيحِ، وَمِنْهَا الذُّهُولُ عَنِ الْمَقَاصِدِ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاقِلِينَ لَا يَعْرِفُ الْقَصْدَ بِمَا عَايَنَ أَوْ سَمِعَ وَيَنْقُلُ الْخَبَرَ عَلَى مَا فِي ظَنِّهِ وَتَخْمِينِهِ فَيَقَعَ فِي الْكَذِبِ»[11].

لعل الأمر لا يتوقف عند تزييف أو تحريف الخبر، وإنما قد يتعداه إلى تشكل مفهوم شامل لتاريخ أمة أو حضارة ما بعيد كل البعد عن واقع ما كان، فلا يحتاج الإنسان جهدا كبيرا في معرفة ما كتب عن الدولة الأموية مثلا، من فوارق واختلافات عميقة بين مؤرخي الطائفتين السنية والشيعية، والأمر نفسه يمكن ملاحظته بخصوص عقود الخلافة الراشدة، والسيرة النبوية بين منهج المسلمين عامة وبعض المستشرقين، هذا ما يجب أن يتصدى له جيل آخر يحمل تصورات أكثر حداثوية للفهم والتأويل والإبستيم التاريخي، سيظهر هذا الأفق الجديد ويتطور في أوروبا على مر العصر الحديث، وسيصطبغ بنظرة مثالية متأثرة بكل من كانط وهيجل الألمانيين وفولتير الفرنسي وفيكو وكروتشه الإيطاليين، حتى تصطدم العلوم الإنسانية كلها بأزمة جديدة مع نهاية القرن 19م فتزعزع أركانها، فيعود الشك ليعتريها من كل الجوانب، وبهذا يذكر عبد الله العروي عن روبن جورج كولينجوود (1889- 1943م)، فيقول: «... أَوَّلُهُمَا فِكْرَةُ التَّارِيخ... وَالْقِسْمُ الثَّانِي إِلَى الْمَعْرِفِيَّات (الْإِبْستِيمُولُوجِيَا)، أَيْ إِلَى مَنْطِقِ الْمُؤَرِّخِينَ الْمُعَاصِرِينَ، وَانْتَهَى إِلَى نَظَرِيَّةٍ اشْتَهَرَتْ مُدَّةً طَوِيلَةً فِي الْعَالَمِ الْأَنْجلُوسَاكْسُونِي تَقُولُ: "إِنَّ التَّارِيخَ كُلَّهُ مِنْ صُنْعِ الْمُؤَرِّخ"»[12]، ومن هنا تجد فلسفة التاريخ لها مكانا في القرن العشرين تساهم من خلاله في الرؤية النقدية للعالم في عصر ما بعد الحداثة، وعصر النهايات الكبرى.

[11] المرجع نفسه، ج1، 46.

[12] عبد الله العروي، مرجع سابق، ص18.